نظرة في التطور الحضاري لنوميديا الشرقية

بقلم: أ. حفيظة لعياضي

أستاذة مساعدة، جامعة المسيلة

ملخص

عرفت بلاد المغرب القديم وجود كيانات سياسية وطنية مستقلة, شكلت مملكة نوميديا الشرقية إحداها، هذه الأخيرة غطت الشرق الجزائري وبعض الأجزاء التونسية آنذاك. وإن كان ذكر مملكة الماسيل لم يرد إلا في كتابات مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد وما بعده،لارتباطه بأحداث خارجية، قرطاجية أو رومانية، فإن مؤشرات حضارية أخرى ترجع كينونتها إلى ما قبل ذلك بكثير، ولكنها عرفت تطورات منذ القرن الثالث ق.م إلى توحيد النوميديتين الشرقية و الغربية في عهد ماسينيسا لاحقا، توحيد شهد معه دورا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بارزا. وإن كانت هذه المنطقة قد تأثرت بالوجود الروماني منذ سنة 46 ق.م، والاحتلال الكامل لها منذ 40 م، من طرف هذا الأخير، فإن مقومات شعبها لم تفتأ أن قدمت أدوارا ملموسة من المقاومة السياسية والثقافية، طيلة فترات الاحتلال الروماني، الوندالي والبيزنطي فيما بعد.

الموضوع:

عرفت بلاد المغرب القديم كيانات سياسية وطنية مستقلة، تمثلت في مملكة موريطانيا، التي امتدت من نهر المولوشا (الملوية) إلى المحيط الأطلسي، وتليها شرقا مملكة نوميديا الغربية (مملكة المازيسيل)، ثم مملكة نوميديا الشرقية (مملكة الماسيل)، هذه الأخيرة تبدأ حدودها الغربية من مصب لامبساقا (نهر الرمال)، كما أشار إلى ذلك بلين القديم[1]، عند الجنوب الغربي لرأس تريتون (جبل بوقرون أو بوقرعون بالقل)[2]، حيث أورد سترابون في جغرافيته، طول المسافة بين رأس تريتون وقرطاج بـ 3000 ستاديوم بخط مستقيم، وقدر المسافة بين قرطاج وماسيليا بـ 6000 ستاديوم، على طول الساحل[3]، فامتدت بذلك على الشرق الجزائري وتونس الغربية. إذ يمثل كل من التل الأعلى التونسي، والمنطقة السيرتية بامتدادها الجنوبي، وكذا منطقة الأوراس عناصر مطابقة للإقليم الذي تكون العائلة الملكية قد انبثقت منه. فهي بذلك تغطي في الشرق القسم الأكبر من حوض باقرادا، إلى جانب جبال الظهر التونسية، وتضيق نسبيا في قسمها الشمالي، ولكن لها أقاليم واسعة في المناطق الجنوبية، تنتجع فيها قبائل الجيتول.

أما زمنيا، فيبدو حسب كومس أن إقليم هذه المملكة، كان أضيق قليلا قبل حكم ماسينيسا (203-148 ق.م)، إلى حد أنه لا مدينة دوقة ولا حتى سيرتا، كانتا تكونان قسما من المملكة في نهاية حكم الملك غايا (208ق.م) [4]، إذ يذكر تيت ليف أن سيرتا كانت بحوزة الملك سيفاكس بين سنتي 206-203 ق.م، فكانت بذلك مملكة الماسيل أقل اتساعا من مملكة المازيسيل، فهي لم تحتوي إلا على الجهة الشرقية لقسنطينة، هذا غربا، أما من الناحية الشرقية فإننا نجد خلال النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، بأن حدود مملكة الماسيل مع المقاطعة البونية كانت تقريبا مثلما هي الحدود اليوم بين الجزائر وتونس. وأما جنوبا، فإن ممالك الماسيل والمازيسيل والمور، كانت تحدها قبائل الجيتول، البعض منها كان مستقلا تماما، والبعض الآخر شبه مذعن لمملكة أو لأخرى، لكن المؤكد أنه حين وفاة ماسينيسا سنة 148ق.م، كان يحكم نوميديا الموحدة، أي كل المنطقة الممتدة من موريطانيا إلى قرطاجة، من نهر مولوشا إلى دوقة، ومثله أيضا ابنه مكيبسا وحفيده يوغرطة، الذين جمعوا تحت سلطتهم مملكة الماسيل إرث آبائهم، ومملكة المازيسيل[5]. لكننا نجد خلال

---

(1) Pline l'ancien, Histoire naturelle, V, II, 1.

(2) S. Gsell, Atlas archéologique de l'Algérie, T. 1, éd. Agence nationale d'archéologie et de protection des sites et monuments historiques, feuille 1.

(3) Strabon, Géographie, XVII, III, 6.

(4) غابريال، كامس: في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة وتحقيق العربي عقون، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، (الجزائر 2010)، ص ص 205،210.

(5) S. Gsell, histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T. 5, éd. Libraire Hachette, (Paris 1927), p.100-101.

فترة الاحتلال الروماني بأن مملكة نوميديا تتقلص في قبيلة نوميدة، التي مثلتها مدينة طبرسقة (توبورسيكو)، الواقعة على بعد نصف المسافة بين هيبون و تيفست[1].

وعلى ضوء هذه المعطيات الجغرافية التي شغلتها نوميديا الشرقية، سواء قبل ضمها إلى نوميديا الغربية، أو بعد توحيدهما على يد ماسينيسا، هل يمكننا التساؤل عن أصول هذه المملكة وعن النظام السياسي الذي عرفته آنذاك؟ ثم ما التطور الاقتصادي و الاجتماعي الذي شهدته طيلة تلك القرون؟

فعندما نتحدث عن أصول النظام السياسي في نوميديا الشرقية زمنيا، لا نجد المصادر التاريخية الكافية التي تثبت وجود كيان سياسي مغاربي مكتمل الشروط قبل ظهور قرطاجة، باستثناء أسطورة عليسا، التي تشير إلى وجود نوع من التنظيم السياسي في منطقة تونس الحالية، أواخر القرن التاسع قبل الميلاد[2]، وذلك عندما تحدث يوستينوس (Justin) عن إيرباص (Hiarbas) ملك الماكسيتان (Maxitains) الذي طلب الزواج من عليسا ديدون[3]، بالإضافة إلى ما ذكره هذا المؤرخ من أن قرطاجة ظلت تدفع ضريبة سنوية للمغاربة منذ تأسيسها سنة 814ق.م، حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، مما يدل على استمرار هذا النظام[4].

إلا أن أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، قد شهد نوعا من الأنظمة السياسية المجاورة لقرطاجة، بدليل ما أورده ديودور الصقلي، من أن ملكا نوميديا يدعى إيلماس (Ylmace) حالف أغاثوكليس الإغريقي عندما غزا السواحل القرطاجية سنة 310ق.م[5]. وفي القرن الثالث قبل الميلاد، نجد في النصوص ذكرا لأوائل ملوك نوميديا الشرقية يتصدرهم غايا، وذلك لمعاصرته الحرب البونية الثانية. ويضاف إلى كل هذه الإشارات، أن مظاهر القوة السياسية والاقتصادية التي عرفتها نوميديا الموحدة على يد ماسينيسا، تبعث على الاعتقاد بوجود نظم سياسية سابقة لتلك المملكة، مهدت السبيل لهذا النمو والازدهار الذي نسبه المؤرخون القدامى إلى ماسينيسا[6].

هذا من ناحية الزمان، أما المكان، فإن أصل قبائل نوميديا الشرقية يرجعه كومس إلى أقصى غرب هذه المملكة، في منطقة سيرتا. إذ المؤكد أن ماسينيسا ومكيبسا إتخذاها عاصمة، على خلاف غايا الذي لم يصل

---

(1) غابريال، كامس: نفسه، ص 214.

(2) محمد البشير، شنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م-40م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر 1982)، ص 17.

(3) Justin, XVIII, 6.

(4) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، (الجزائر 1992)، ص 98.

(5) Diodore de Sicile, histoire universelle, XX, 10.

(6) محمد البشير، شنيتي: نفسه، ص20-21.

حكمه إليها، لأنها كانت بحوزة سيفاكس، كما أن غياب النصب الميغاليتية في منطقة سيرتا، يمكن أن يؤدي إلى الاعتقاد بوجود كثافة سكانية كبيرة حول جبل الفرطاس، أين وجدت مسلات بحجم كبير، مصورة الملوك المحليين. فبعض الوثائق الأثرية تشير إلى أنه منذ القرن الرابع قبل الميلاد، أو القرن الثالث قبل الميلاد، وربما قبلهما، كان نوميد هذه المنطقة على علاقة بالتجار البونيين[1]. في حين أن دراسات أخرى تشير إلى البحث عن أصول قبيلة "ماسولة" (الماسيل)، جنوب الإقليم الأول، في منطقة الأوراس، أين نجد الضريح الملكي الضخم "المدغاسن"، الذي يرجع تاريخ تشييده إلى القرن الثالث قبل الميلاد[2].

هذه المملكة ولا شك أنها عرفت تنظيما سياسيا معينا، نجد فيه النظام الملكي الوراثي، مع ملاحظة طريقتين في انتقال الحكم، أقدمها تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أين كانت الملكية ملك العائلة التي تنتهي بالذكور إلى جد مشترك واحد، وكان الملك هو الأكبر سنا في العائلة، وبوفاته ينتقل الحكم إلى الأكبر، وهكذا. وأما القاعدة الثانية، فقد تجسدت بعد وفاة ماسينيسا سنة 148ق.م، حيث خلفه أبناؤه الثلاثة: مكيبسا (Micipsa)، غلوسان (Gulussa)، و مسطنبعل (Mastanbal)، حيث قسمت السلطة بينهم، فأسندت للأول السلطة التنفيذية، وإلى الثاني السلطة العسكرية، أما الثالث فقد تولى السلطة القضائية. ويرجع البعض هذا التقسيم في السلطة إلى إصلاح إداري قام به ماسينيسا، سيما وأننا نجد هذا الحكم في المدن النوميدية، مثل مكثر وقيرطا، كما أن تكرار عملية الحكم الثلاثي بعد وفاة مكيبسا، الذي أوصى بالحكم لابنيه عزربعل وحفصبعل، ويوغرطة الذي تبناه لهذا الغرض، ما يشير إلى هذا الإصلاح[3].

إلى جانب نظام الحكم، يمكننا أن نتحدث عن الملك، الذي حمل في اللغة الليبية اسم "الاقليد"، وفق ما ورد في النقوش، كما حاول هذا الملك- أو غيره من الملوك- فرض سلطة مطلقة، خاصة ماسينيسا، لكن سعة المملكة، وصعوبة الاتصال، وكذا النظام القبلي، إلى جانب اختلاف نمط المعيشة بين الحضر والرحل، قد وقف حائلا والسلطة المركزية المطلقة، وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى افتراض وجود ثلاث نظم إدارية في ذات الوقت: الإدارة المركزية بالعاصمة قيرطا كمقر مركزي، الإدارة القبلية، وعلى رأس كل قبيلة رئيس يحصل على سلطته من القبيلة أو من الملك، وأخيرا إدارة المدن، التي كانت تتمتع باستقلالية واسعة في تسيير مصالحها البلدية.

هذه الأخيرة التي نجد نصوص عديدة تتحدث عن ولاة الملك في الأقاليم، مثل نص تيت ليف الذي تحدث عن تعيين سيفاكس لولاة له في بلاد الماسيل، كما تحدث سالوستيوس عن ولاة الملك يوغرطة الذين استقبلوا ميتيلوس عند اجتياحه الأراضي النوميدية، مما يوحي بوجود حكام أقاليم يخضعون لأوامر السلطة

---

[1] G. Camps, les berbères mémoire et identité, éd. Barzakh, (l'Algérie 2007), p. 105.

[2] شارل أندري، جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمد مزالي و البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، (1969)، ص 132.

[3] محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 104-105.

المركزية. وتنظيم هذه المدن أو البلديات، كان خاصا بالمدن الساحلية كما الداخلية، التي سكت العملة باسمها، مثل قيرطا تاجوراء، لكن المعارف حول مؤسسات هذه المدن نادرة، نجد منها وظيفة الأشفاط الذين كانوا ثلاثة بالمدن النوميدية، لا اثنين كما هو الحال في قرطاجة والمدن الفينيقية، وهو حال مدينة مكثر مثلا، وأيضا قيرطا (سيرتا)، فيما يسمى بالضباط الأساسيين في الاتحاد القيرطي. ونجد نصوصا أخرى تشير إلى هؤلاء الأشفاط في كثير من المدن النوميدية: دوقة، مكثر، ليميسا، ألتيبوروس، مسولولة، قفصة، قالمة، وربما في موضع إلى الجنوب من قالمة، حتى في العهد الإمبراطوري، مما يدل على استمرار هذا النظام.

وبالنسبة لوظيفة هؤلاء الأشفاط، نجد بأن رئيس البلدية كان يحمل اسم إقليد، وهو نفس اللقب الذي يحمله ملك النوميديين، وكانت وظيفته سنوية، ويمكن أن يعاد انتخابه. ويأتي بعده حاكمان يحملان لقب "رئيسا المائة": MW SN بالليبية وRBT Mit بالبونيقية. وإلى جانب الأشفاط، كان هناك مجلس شيوخ بلدي، أين نجده في نقوش باجة وقالمة، حيث نقش أول أعضاء المجلس وهو "رب الميزرة"، متبوعا بـ31 اسما. ويبقى مع ذلك النظام البلدي في مدينة دوقة على عهد مكيبسا، النموذج الأكثر وضوحا على ما تبينه النقوش، إذ كان بها مجلس للمواطنين شيد باسمه معبد للملك ماسينيسا في السنة العاشرة من حكم مكيبسا. كما أشارت العديد من النقوش إلى الكتاب والمحاسبين وأمناء الخزينة، والمقتصدين وناقلي البريد، وجباة الضرائب، وغيرها من الوظائف التي كانت في خدمة الجهاز الإداري لهذه البلديات، إذ تعود معظم النقوش التي عثر عليها في معبد الحفرة بقسنطينة إلى الفترة الممتدة ما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد، وهي فترة بلوغ هذه الممالك لأوج ازدهارها[1].

ولا يتوقف التنظيم السياسي لنوميديا الشرقية عند هذا الحد، بل نجد تنظيم الجيش يشكل ركيزة أساسية فيه، إذ يذكر كومس أن النوميديين قبل أن يتعلموا تنظيم الجيش على الطريقة الرومانية، كانوا مقلدين للنموذج البوني حتى نهاية المملكة. لكن الجدير بالذكر أنه في بدايات حكم ماسينيسا، نجد بأن قوى الجيش الأساسية لم تكن بالمدن فحسب، بل كانت أيضا ضمن الكتلة المتماسكة من القبائل النوميدية المحيطة بالملك، حيث كان الجيش يتكون من وحدات تتعهد القبائل بوضعها في خدمة الملك، وفي حالة العصيان أو الانشقاق،يمكن للملك أن يستغل التنافس التقليدي بين القبائل، وأن يضرب المتمردين بالكنفدرالية المجاورة لها، لكن سرعان ما تحول الجيش الملكي الموجه خاصة لفرض سلطة الحاكم على القبائل المتعنتة، إلى فرق أقام بها ماسينيسا مملكته، وبتحول المدن إلى مصدر للموارد الأساسية، فإن الفرق الملكية المنظمة، والمسلحة على الطريقة البونية، أسهمت ماديا ومعنويا في تراجع مكانة القوى التقليدية التي يعود الفضل إليها في إنشاء

[1] محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص ص 106، 112.

المملكة، فقد كان تكوين جيش نظامي يتطلب موارد هامة، مصدرها الضرائب على القمح (أداء عيني)، وكذا من الرسوم المحصلة من المدن بشكل خاص[1].

وبالإضافة إلى الجيش الدائم الذي كان مزودا بالأسلحة الدفاعية[*] كما الهجومية، واستخدام أدوات الحصار، إلى جانب الفيلة، حيث ذكرها قيصر عندما تحدث عن جيش يوبا الأول، بأنه كان مجهزا بـ 60 فيلا[2]. يمكن أن نذكر أيضا في تنظيم الجيش ما يسمى بوحدات الاحتياط،التي تجند عند اندلاع الحرب، وتسرح بمجرد انتهائها، حيث ذكر سترابون بأن سيرتا جهزت على عهد مكيبسا، قوة تضم 10آلاف، ما بين فرسان ومشاة، تسحب وقت الحاجة[3]. ويمكننا أن نضيف المرتزقة، التي يفهم من بعض النصوص أن الملوك النوميد قد استخدموا الليقوريين والتراقيين والغاليين والاسبان في جيشهم[4]. وليس هذا الجيش كمكون للنظام السياسي، وحده دليلا على التطور الحضاري في نوميديا الشرقية، بل نجد نظما أخرى ساهمت في ذلك، كالنظام الاقتصادي بمقوماته المختلفة.

ففي الجانب المالي، كانت الضرائب حسب الإشارات الواردة في النصوص، منتظمة في المدن النوميدية وفي الأرياف، حيث المزارعون والمستقرون، وتكون بعض المدن قد استفادت من الإعفاء الضريبي، كما أن بعض القبائل تكون معفاة ظرفيا أو بصفة دائمة، بالنظر إلى ما تقدمه من خدمات للدولة، وأهمها القيام بالواجب العسكري، وهناك القبائل شبه المستقلة، التي لا تدفع الضريبة. كما كانت هناك رسوم على القطيع، خاصة وأن تربية الحيوان بإفريقيا ظلت الثروة الأساسية للسكان، وقد جاء في نص سترابون أن الملوك النوميد كانوا يقومون سنويا بإحصاء المهور، لأهمية الخيل في الميدان العسكري، بغرض تزويد الإسطبل الملكي بالخيول الضرورية في السلم والحرب[5].

كما احتلت الزراعة مكانة مرموقة في تطور نوميديا الشرقية، خاصة بعد توحيد النوميديتين، وذلك لاجتماع عناصر مهمة، حققت نشاطا اقتصاديا زاهرا، مثل الاستقرار السياسي الناتج عن طول فترة حكم معظم الملوك: ماسينيسا 55 سنة، مكيبسا 30 سنة، حفصبعل الثاني مايقرب 30 سنة، وهو ما أدى إلى

---

(1) غابريال، كامس: المرجع السابق، ص 314-318.

(*) وجد في معبد الحفرة: الرمح، الترس البيضاوي، الخوذة المدببة، القوس، وخاصة السيف القصير، كما تضمن قبر الخروب "خوذة وسيفا" (للمزيد يمظر: غابريال، كامس: المرجع السابق، ص 317).

(2) César, Guerre civile, II, 40. I.

(3) Strabon, Géographie, XVII, III, 13.

(4) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 113.

(5) محمد العربي، عقون: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر 2008)، ص 53-54.

ازدياد الإنتاج الزراعي، وتنشيط المبادلات التجارية، خاصة بعد زوال الاحتكار القرطاجي، وفتح ماسينيسا للموانئ في وجه التجار الإغريق[1].

لكن هذا العامل لا يقف وحده وراء تنشيط الزراعة، لأن ظهورها ببلاد المغرب قد سبق ذلك بوقت طويل، بدليل الأدوات الزراعية الماقبل تاريخية التي عثر عليها كومس في مناطق متفرقة من شمال إفريقيا، مثل الديقينق–ستيك (Digging- stick)[*]، التي تعتبر معاول بدائية استعملها القفصيون وخلفاؤهم النيوليتيون، وكذا المناجل التي ظهرت في فترة أحدث، تعود للقفصي الأعلى، عثر عليها لأول مرة في البوليقون بو هران، إضافة إلى مطاحن ومطارق وفؤوس، عائدة إلى النيوليتي[2]، وكلها أدوات ساهمت في ازدهار الزراعة بكل عناصرها، كملكية الأراضي مثلا.

إذ نجد في بعض تلميحات المؤرخين القدامى، وجود أراضي فلاحية ملكية تابعة للقصر، وأخرى للأمراء، وأراضي المعابد، إلى جانب الملكيات الخاصة، وبسبب اقتضاب الوثائق حول مدى سعة هذه الملكيات وطرق استغلالها، يمكن افتراض سعة المزارع الملكية، اعتمادا على نص ديودور الصقلي، الذي ذكر بأن ماسينيسا ترك 10000 بلترا لكل ولد من أولاده. وكانت هذه الأراضي تستغل بواسطة رجال أحرار، أما أراضي الرعي فلا توجد بها ملكية فردية، حيث تبقى المراعي تحت تصرف كل العشيرة، كما تبقى الأراضي غير الصالحة للزراعة عند القبائل الزراعية، تحت تصرف الجميع، وللجميع حق استغلالها. ولاستغلال هذه الأراضي، استخدم النوميد أدوات مختلفة، كالمجرفة قبل معرفة المحراث، والمعول، وأنواعا من المعازيق المحلية، والمنجل المستخدم في الحصاد، حيث نجد طريقتين لذلك: طريقة بدائية، تقوم فيها الحيوانات بدوس السنابل على البيدر، وطريقة أكثر تطورا، تستخدم فيها عربة تتكون من قطعتي خشب بعجلتين صغيرتين مسننتين من الحديد، تسمى العربية البونيقية[3] Postellum poenicum ،إضافة إلى المحراث الذي وجده كومس في مناطق عدة من بلاد المغرب، حيث صنفه إلى محراث مسنن بشكل زاوية، وهو الشكل المتطور، والمحراث ذو المقبض الزاحف، هذا الأخير المنتشر بمنطقة الأوراس والقبائل[4]. كما أن هناك أدوات إنتاج أخرى، مثل

([1]) محمد الهادي، حارش: نفسه، ص 115.

[*] "نهايتها العليا مزودة بكويرة حجرية حتى تسمح بالتركيز عند غرزها في التربة، مثلت أدوات لتهيئة التربة المحيطة بالنباتات المفيدة، كما يمكن استعمالها في فتح أوكار وأعشاش الحيوانات التي تكون مملوءة بالبذور الصالحة للأكل." (للمزيد ينظر: غابريال، كامس، المرجع السابق، ص77)

[2] غابريال، كامس: نفسه، ص81.

[3] محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 117–118.

[4] غابريال، كامس: نفسه، ص 102.

وسائل التخزين، كالمطامير التي تكون جوفية (دهليزيه)، وبيوت المؤونة، لتخزين فائض الحاجات الاستهلاكية بالأرياف، أما بالمدن فنجد مخازن غلال جماعية، لتخزين جميع المواد لا الحبوب فحسب[1].

وبعد الحديث عن أدوات الإنتاج، يحق لنا التساؤل عن المنتجات الزراعية التي حظيت بها مملكة نوميديا، إذ نجد الحبوب تحتل الصدارة في الإنتاج الزراعي[*]، وأيضا البقول والخضر التي كانت تزرع حول مراكز التجمعات السكانية (قيرطا، تبسة، دوقة)، إضافة إلى الفواكه[2]. وأما الإنتاج الحيواني فقد عرف بدوره انتعاشا، سيما في عهد نوميديا الموحدة، إذ نجد سالوستيوس يتحدث عن الأراضي الخصبة الجاهزة لتربية المواشي[3]، وأيضا بلين القديم في حديثه عن حيوانات إفريقيا[4]، كما ذكر بوليب بأن الخيول، والأبقار والأغنام والمعز، تتواجد بكميات كثيرة في إفريقيا[5]، فقد أولى الملوك النوميد عناية كبيرة بتربية المواشي، للاستفادة من مادتها الغذائية، كالألبان والاجبان واللحوم، زيادة على أصوافها وجلودها لصناعة الملابس الصوفية والجلدية، والأحذية والسروج وغيرها[6].

فالصناعة كان لها دورها أيضا في تطور هذه المملكة، حيث نجد في الآثار والنقوش دلائل على سبك الحديد، و صناعة النسيج والأقواس والدباغة، والصباغة الأرجوانية، باستغلال المريق، وكذا صناعة الفخار. هذه الأخير الذي يقسمه بعض الباحثين إلى فخار نذري موجه للعبادة، وفخار عائلي موجه لاستعمالات مختلفة، في حين نجد فريقا آخر يقسمه من حيث اللون والزخرفة إلى نوعين: نجد في الأول القدور والجفن والصحون والفناجين، والمصابيح بلون رمادي أو أسود، وهي غير جديرة بالزخرفة، أما النوع الثاني فهو الفخار المصبوغ، وتعد صناعته أكثر إتقانا وتنوعا، ورغم كونه ريفيا هو الآخر، إلا أنه مزخرف بالأسود أو الداكن السمرة مع اللون الأحمر، وترتكز الزخرفة على أشكال هندسية مستقيمة مسطرة بالفرشاة.

كما أننا نجد إلى جانب صناعة الملابس، بأن الصناعات النسيجية المغاربية قد احتلت مكانة معتبرة أمام الأنسجة المتوسطية، فرغم ندرة النصوص، إلا أن شهرتها قد تجاوزت الأسواق المحلية، فهذا مارتياليس

---

[1] محمد الهادي، حارش: التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203- 46 ق.م، دار هومة، (الجزائر 1984)، ص 103.

[*] "للاستدلال على وفرة إنتاج الحبوب، يمكن القول أن ماسينيسا قد أرسل سنة 200ق.م 14 ألف قنطار من القمح، و10500 قنطار من الشعير إلى الرومان، بينما وصلت هذه الكمية سنة 170ق.م إلى 70 ألف قنطار من القمح، مما يدل على التطور الكبير في الإنتاج." (للمزيد ينظر:محمد الهادي، حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، ص 120.)

[2] محمد الهادي،حارش: نفسه، ص 121.

[3] Saluste, guerre de Jugurtha, XVII.

[4] Pline l'ancien, histoire naturelle, V, II, I.

[5] Polybe, histoire générale, XII.

[6] محمد العربي، عقون: المرجع السابق، ص 19.

(Martial) يتحدث في مواضع عدة عن الجوخ المصنوع من شعر الماعز في لبدة، كما أشاد فيرجيلوس (Virgile) بالقبعات الليبية المصنوعة من نفس الشعر، وتحدث سولينوس (solin) عن الأقمشة الأرجوانية، التي تنافس مثيلاتها القادمة من الشرق. كما يمكننا أن نشير في الصناعات النوميدية إلى صناعة الحلي، الذي عثر عليه في عديد القبور، ضمن الأثاث الجنائزي، مثل الخواتم، الأقراط، الخلاخل، العقد، والأساور من معادن مختلفة ومن الزجاج. ولن ننسى صناعة الأسلحة، التي وجدت بدورها في القبور، وذكرتها بعض النصوص، كالرمح، السكين، والسيف بالنسبة للأسلحة الهجومية، ونجد صناعة خوذة الحرب، الدروع و واقيات الصدر بالنسبة للأسلحة الدفاعية[1].

والحديث عن الاقتصاد كمظهر من مظاهر التطور الحضاري لنوميديا الشرقية، يأخذنا إلى معرفة وضعية التجارة فيها. ويبدو أن الإنتاج الزراعي والحيواني كان فائضا عن الحاجة، خاصة في عهد نوميديا الموحدة، لذلك نجد مواد التبادل قد تنوعت بين الصوف والجلود، التي كان يقدمها الرعاة مقابل الحصول على الحبوب، وبين أدوات عمل فلاحية، يقدمها الحرفيون المدنيون إلى الرعاة، إلى الحبوب التي يقدمها المزارعون.وبذلك يجد الرعاة بالمدينة سوقا يقتاتون منها ما يحتاجونه، ويتمكن الحضريون والقادمون من المناطق النائية، من شراء ما يلزمهم من مواد وأدوات، ولهذا الغرض انتظمت الأسواق في شكل معارض أسبوعية في بعض المدن. وقامت مدن المراكز الزراعية الكبرى بهذا الدور، مثل باجة التي مثلت سوقا كبيرا للحبوب، و سيقا التي كانت تتوسط إقليم إنتاج القمح، و قيرطا التي كانت بدورها سوقا أساسيا يرتاده الناس من مختلف الأقاليم[2].

هذا عن التجارة الداخلية، أما التجارة الخارجية فيمكننا أن نتحدث فيها أولا عن مقوماتها، التي أصبحت فيها الإسكالات البونية مرافئ نوميدية، بعد توحيد نوميديا، كما أن امتلاك سهول الأمبوريا في السرت الصغرى والمنطقة الطرابلسية، قد ضمن السيطرة التامة على الصادرات النوميدية باتجاه العالم الإغريقي، وأصبح ماسينيسا —على سبيل المثال لا الحصر– يمتلك عديد الموانئ ذات التقاليد الملاحية العريقة، إضافة إلى امتلاكه لأسطول بحري يحمي تجارته. وعلى عكس القرطاجيين الذين كانوا يغلقون الموانئ الإفريقية بصرامة في وجه الشعوب الأخرى،قام العاهل ماسينيسا باجتذاب التجار الإغريق، المصريين، السوريين، وخاصة الرومان.

إذ تمثلت صادرات نوميديا في الحبوب، العاج، ريش وبيض النعام، حيوانات السيرك، القردة والأخشاب، مثل خشب التويا الذي قدمه ماسينيسا للروديين[3]، وكذا خشب العصفية والبلوط الأخضر المستخدمين في صناعة الأثاث، وأخشاب الأرز المستخدمة في البنايات العامة، كما يمكننا أن نضيف لهذه الصادرات، حجر المرمر والعسل الإفريقي. وأما الواردات، فإن المصادر قد سكتت بشأنها، لعدم اهتمامها

---

(1) محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص 124-126.

(2) نفسه، ص ص 128، 129.

(3) غابريال، كامس: المرجع السابق، ص ص 232، 233.

بالسلع المصدرة من روما بقدر الاهتمام الذي أولته إلى تلك التي تصل إليها، لكن البقايا الأثرية أشارت إلى وجود المصنوعات الفخارية، كالمصابيح والآجر، والأنابيب التي عثر عليها في مناطق متفرقة من بلاد المغرب[1]، فقد عثر في سيرتا مثلا على جرار رودية بمدافن إحراق الموتى، وهي شاهد على دخول السلع الإغريقية إلى قلب نوميديا.

وتبقى هناك إشارة أخيرة حول التجارة في نوميديا، وهي العملة. فمن المحتمل جدا أن يكون للماسيل، وهم الأقرب إلى قرطاج، وعلى علاقة متينة بها، أن تكون لهم عملة خاصة، منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، على أن تطويرها وتداولها كان في عهد ماسينيسا، خاصة في سيرتا، هذه الأخيرة التي وجدت بها قطع نقدية تحمل على أحد وجهيها صورة ملك ملتح، وعل الوجه الآخر صورة حصان راكض، حيث أن كثرة انتشارها تدل على استمرارها في التداول إلى غاية القرن الأول ميلادي. ويبدو أن معظم العملات النوميدية كانت إما من النحاس أو من الرصاص، وباستثناء ثلاث قطع فضية تنسب إلى فرمينا، ومجموعة فضية وذهبية صغيرة من نوع مختلف، تعزى تقليديا إلى يوغرطة و يامبسال الثاني، لا نعرف عملة من المعادن النفيسة يمكن أن ترجع لملوك نوميد من فترة ما قبل يوبا الأول (60-40ق.م). كما أن العملة البرونزية لم تكن متداولة داخليا فقط، بل تجاوزت ذلك إلى عالم البحر المتوسط، كما يدل على ذلك الكنزان المكتشفان بالبلقان، أحدهما في "كولة" (Kula) بـ بلغاريا، والآخر في مازين (كرواتيا) الذي يضم على الأقل 328 قطعة نقدية نوميدية. فالملاحظ حسب كومس، أن ماسينيسا لم يسك عملة فضية ولا ذهبية كما فعل خلفاؤه، وليس الافتقار للمعادن النفيسة هو العامل الأساسي وراء ذلك، بقدر ما يعود إلى سياسة الاكتناز المعتمدة من طرف الملوك النوميد على غرار قرطاج[2]

وإلى جانب العملة وبقية المظاهر الاقتصادية، يمكننا أن نلمس مظهرا آخر من المظاهر الحضارية، وهو الجانب الاجتماعي، ولعل اللغة عنصر مهم فيه. إذ أن اللغة الأصلية لمملكة نوميديا تمثلت في اللغة الليبية، والتي تعرف اليوم بالأمازيغية بمختلف لهجاتها: الشاوية،القبائلية، الشنوية، الريغية، الميزابية، التارقية،الشلحية، والريفية، بكل المعطيات التاريخية، المواقعية، وأسماء الأعلام ومفردات اللغة، إضافة إلى النقوش وشهادات الكتاب القدامى، التي تؤكد انحدار هذه اللهجات من اللغة الليبية القديمة، فلا اللغة ولا الكتابة الليبية اختفت في الفترة الرومانية ولا بعدها، لأننا نعثر على العديد من النصب المكتوبة بالليبية، أو المزدوجة، الليبية-البونيقية الجديدة، أوالليبية-اللاتينية، حيث استمرت أيضا في نهاية العصور القديمة، مع ما يعرف بالنقوش الليبية-البربرية التي تقدم شكلا من الكتابة الانتقالية بين الليبية والتيفيناغية، بمناطق عديدة من بلاد المغرب[3].

---

[1] محمد الهادي، حارش: المرجع السابق، ص ص 131، 132

[2] غابريال، كامس: المرجع السابق، ص ص 241، 244

[3] محمد الهادي، حارش: دراسات في تاريخ الجزائر الماضي والحاضر، دار هومة، (الجزائر 2013)، ص ص 27، 30

وعندما نعود إلى الكتابة الليبية نجدها تحتوي على 23 حرفا، اتجاهها متغير، ففي نقوش دوقة المزدوجة، الليبية– البونيقية،نجد الحروف مرتبة في شكل أفقي، تقرأ من اليمين إلى اليسار بتأثير ربما من الكتابة البونيقية الموجودة معها في النقوش. وفي حالات أخرى، نجد الكتابة موضوعة في صفوف عمودية متوازية، تقرأ من الأسفل إلى الأعلى، والبداية من اليسار، وفي التيفيناغ نجد اتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار، تؤثرا بالحرف العربي.

وإلى جانب الكتابة، نجد الدين يحتل مكانة مهمة عند النوميديين، فقد عبدوا في القديم الشمس والقمر، الذين ارتبطا بعبادة "بعل أمون"، و"تانيت"، المعبودين في قرطاجة. وعن أصول هذين المعبودين، يمكننا أن نلاحظ التشابه اللفظي بين نيت المعبودة عند المصريين باسم "نيت– تهينو"، أي "نيت" الليبية، وتانيت المعبودة في قرطاجة، فإذا حذفنا من "تانيت" حرف "تا" الدالة على التأنيث في اللغة الليبية، حصلنا على "نيت" التي عبدها المصريون. وهو شأن الإله أمون و صلته بالإله "بعل –حمون"[1]، إذ كان يرمز لـ أمون الليبي بالكبش، أو رأس كبش، أو بقرني كبش، كما كان للإله" بعل–حمون" القرطاجي أيضا صلة بالكبش، حيث عثر في الأثاث الجنائزي للقبور القرطاجية، على رؤوس وقرون كباش، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أمون عند المغاربة كإله للشمس، وكذلك الأمر بالنسبة للقرطاجيين، رغم أنه لم يكن معبودا عند الفينيقيين. وكذلك نجد صعوبة في تفريق الألف والحاء والهاء في اللغة البونيقية، مثلما توضحه نقوش معبد الحفرة التي نقش فيها اسم هذا الإله.

وزيادة على هذه العوامل، نجد بأن عملية المزج هذه بين "بعل" الفينيقي و"أمون" المغاربي، لم تكن الأولى، إذ سبق للمصريين أن مزجوا بين الإله "رع"، إله الدولة القديمة في ممفيس، و أمون في عهد الدولة الوسطى في طيبة، ليصبح فيما بعد "أمون–رع"، وهذا ما يوحي بأصول عبادة "بعل–أمون" المغاربية. فأمون كان الإله الأعلى عند النوميديين بلا منازع، بدليل انتشار عبادته على نطاق واسع، بما في ذلك الآثار والرسوم الصخرية التي تشهد على ذلك[2].

بالإضافة إلى بعل– أمون وتانيت، نجد "بعل– يدر" الذي يعني الإله الحي، إذ مزج الإله الفينيقي "بعل" والإله "يدر" المعبود عند النوميديين. كما كان العجل "قورزيل" الذي تحدث عنه كوريبيوس[3] (Coripe) معبودا أيضا، وكذا الأسد والتنين دراكون مقدسين بشكل عادي.كما يلاحظ عبادة الملوك التي ظهرت في

---

(1) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، ص ص 138، 145.

(2) محمد الهادي، حارش: دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة، (الجزائر 2001)، ص 11.

(3) Coripe, Johannides, II.

عهد ماسينيسا الذي سعى لأن يكون عاهلا بمعنى الكلمة، وأن يظهر بمظهر إله[1]، ولعل في تشييد ضريح المدغاسن بالأوراس، وبعض الأبراج الجنائزية الملكية، مثل صومعة الخروب في نوميديا الشرقية دليل على ذلك.

ولم تكن المعابد التي كانت تقدس فيها هذه الآلهة لا أقل تنوعا ولا أقل أصالة من الآلهة نفسها، فبعد أن كانت الكهوف وقمم الجبال تمثل أماكن هذه العبادة، أصبحت الأراضي المسورة المقامة في الهواء الطلق، تمثل مرحلة انتقالية بينها وبين المعابد، هذه الأخيرة التي أنجزت في عهد الملوك النوميد، مثل معبد ماسينيسا الذي بني في دوقة، على عهد مكيبسا، ومعبد الحفرة في قيرطا الذي يرجع تشييده إلى القرن الثالث قبل الميلاد[2]. وداخل هذه المعابد أو خارجها، كانت هناك طقوس مارسها النوميد، مثل ما ذكره هيرودوت من تقديم أضاحي وقرابين مختلفة، كأن تقطع أذن الأضحية وترمى فوق المنازل[3]، بالإضافة إلى تقديم بواكير الفواكه، مثل الرمان والعنب.

تلك كانت أهم الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي عرفتها مملكة نوميديا الشرقية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، إلى ما بعد التوحيد الذي قام به ماسينيسا، وإن كانت هذه المقومات قد دلت على دورها الحضاري و هي مستقلة، فإن مقومات شعبها ما فتأت تقدم أدوارا من المقاومة السياسية والثقافية طيلة فترات الاحتلال الروماني، الوندالي والبيزنطي، التي تعاقبت على المنطقة.

---

(1) شارل أندري، جوليان: المرجع السابق، ص 136.

(2) محمد الهادي، حارش: التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، ص ص 148، 167.

(3) Hérodote, Histoires, IV, 188.

البيبليوغرافيا

أولا: باللغة العربية

–المؤلفات (الكتب)

– جوليان، شارل أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969.

– حارش، محمد الهادي:

– التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، الجزائر، 1992.

– دراسات في تاريخ الجزائر الماضي والحاضر، دار هومة، 2013.

– التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء مسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203– 46ق.م، دار هومة، 1984.

– دراسات ونصوص في تاريخ الجزائر وبلدان المغرب في العصور القديمة، دار هومة،2001.

– كامس، غابريال: في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ، ترجمة وتحقيق العربي عقون، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010.

– عقون، محمد العربي: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008.

– شنيتي، محمد البشير: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا(146ق.م–40م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

ثانيا: باللغة الأجنبية

1–المصادر:

- César, guerre civile, collection Nisard, Paris, 1865.
- Corippe, Johannides, Revue tunisienne, traduction française. J. Alix, publié par le comité de l'institut de Carthage, Tunis, 1900-1901.
- Diodore de Sicile, histoire universelle, T. 6, traduite en français par l'Abbé Terrasson, Paris, 1744.
- Hérodote, Histoires, traduction du grec par Larcher, Paris, 1850.
- Justin, histoire universelle.
- Pline l'Ancien, histoire naturelle, éd. D'Emile Littrée, Paris, 1848-1850.
- Polybe, histoire générale, traduction français. Thuilier, T. 1.
- Saluste, guerre de Jugurtha, éd. Garnier de François Richard, 1933.
- Strabon, Géographie, traduction française. Amédée Tardieu.

2– المؤلفات (الكتب):

- Camps (G.), les berbères mémoire et identité, éd. Barzakh, Alger, 2007.
- Gsell (S.), histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T. 5, éd. Libraire Hachette, Paris, 1927.
- Gsell (S.), atlas archéologique de l'Algérie, T.1, éd. Agence nationale d'archéologie et de protection des sites et monuments historiques, Alger, 1997.